الفصل الثالث

الأنموذج النازى

إن حديقة حيوان برلين – منذ منتصف القرن الثامن عشر وإلى اليوم – تعد رئة المدينة وجنتها الخضراء الوارفة ... حيث تمتد مساحات شاسعة من أراض تضم خمائل وبحيرات وغابات لتربط ضواحى المدينة فى الغرب بقلبها السياسى والثقافى فى الشرق. أما المعمارى النازى "ألبرت شبير" صاحب الخطة الجنونية لتحويل برلين إلى "جرمانيا" كعاصمة جديدة لرايخ "الألف عام" – فقد خطط لإجراء بعض التعديلات الطفيفة فحسب، وارتأى تحويل الحدود الجنوبية للمدينة إلى حى دبلوماسى بديع.

لقد كانت الأراضى المتاخمة لحديقة الحيوان مرتفعة الثمن، إلا أن "شبير" أمكنه الركون إلى السياسات النازية أملا فى منقولات عقارية ذات أسعار زهيدة. فعلى سبيل المثال، وفى عام ١٩٣٨، قامت إحدى أكثر العائلات اليهودية شهرة فى برلين (عائلة مندلسون بارتولدى التى ينتمى إليها الموسيقار الألمانى الشهير فيلكس مندلسون) - بالارتحال عن المدينة وبيع منقولاتها العقارية بمبلغ باهظ للغاية (١٧٠٠٠٠ مارك ألمانى). وبذا، استطاع "شبير" الحصول على قطعة أرض جديدة بيد أنها صغيرة. لذا، فقد أهدتها الحكومة الألمانية إلى إحدى القوى الأوروبية الصغرى - آنذاك - مملكة يوغوسلافيا.

أما بلدية المدينة فقد عمدت إلى تقويض بيت عائلة مندلسون بارتولدى، وأسندت إلى المعمارى "فرنر يوليوس مارش" مهمة بناء السفارة اليوغوسلافية. هذا، ويعد مجمع الألعاب الأوليمبى ببرلين أكثر أعمال "مارش" شهرة. فالاستاد

ذو الحجارة غير الصقيلة والخطوط الهندسية الحادة والمدخل الجليل المهيب ليعد إحدى العلامات المعمارية البارزة لألمانيا النازية. وقد عمد "مارش" فى بنائه للسفارة اليوغوسلافية إلى اعتماد خطوط مماثلة ... فجدرانها ذات الحجارة الجيرية الرمادية تستدعى صرامة متناهية وصلابة بالغة، أما نوافذها الصغيرة بقضبانها الحديدية السوداء فتجعلها أشبه بقصر إيطالى نمطى. وقد افتتحت السفارة فى عام ١٩٤٠، ولم يمض سوى عامين حتى اجتاح هتلر يوغوسلافيا ليقوم النازيون بمصادرة السفارة وإعطاء المبنى لوزارة الرايخ للأقاليم الشرقية المحتلة (الأوستمنستريوم).

كان الدور المنوط بالأوستمنستريوم ذا أهمية قصوى فى فكر هتلر ورؤيته. فجماع ما تم إحرازه فى الحرب حتى ذلك الحين من غزو لأوروبا الغربية وهجوم على بريطانيا ومعارك فى الشمال الإفريقى، كان وسيلة لغاية أبعد ... إذ تمثل

الحلم الهتلرى فى تدشين إمبراطورية ألمانية مترامية الأطراف ... إمبراطورية يمكن أن تمتد حدودها شرقا لتشمل بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا وروسيا. ولقد كان يحلو لهتلر أن يطلق على روسيا اسم "الهند الألمانية"، فروسيا بلد بحجم قارة ذو موارد ما لها من نفاد ... فالحلم الهتلرى، آنذاك، كان مؤداه أن تصير مجمل الأراضى الممتدة إلى حدود الأورال تحت السيطرة الألمانية، على أن تعمل ألمانيا على إعادة ترسيم الحدود السياسية وتنظيم هياكل الجماعات الإثنية داخل الأراضى المحتلة. أما باقى الأراضى الروسية فيترك النظر بشأنها إلى مرحلة لاحقة. وكان مخططا للأوستمنستريوم أن يشرف على ذلك التحول الهائل، إذ كان التفكير بشأنه قد شُرع فيه فى نيسان/ أبريل ١٩٤١، حين كانت ألمانيا تضع خططها للغزو. ومن الوجهة النظرية، لم يكن للجيش الألمانى إلا القليل ليضطلع به بشأن الأراضى المحتلة، إذ توجب عليه سرعة تسليم إدارتها إلى الأوستمنستريوم.

هذا، وقد عُهد بإدارة الأوستمنستريوم إلى واحد من أصدقاء هتلر القدامى، ألا وهو "ألفريد روزنبرغ" الذى ولد فى الثانى عشر من كانون الثانى/ يناير ١٨٩٣ فى ريفال (وهى اليوم تالين فى استونيا التى كانت جزءا من الإمبراطورية الروسية). وقد هاجر روزنبرغ إلى ألمانيا فى أعقاب الحرب الكونية الأولى، وتحديدا فى عام ١٩١٨ ... وسرعان ما انضم إلى حركة "القوميين الاشتراكيين" أو "النازيين"، بل لقد قاد الحركة بنفسه نيابة عن هتلر الذى سجن لفترة وجيزة بعد انقلاب فاشل شارك فيه عام ١٩٢٣ عرف باسم انقلاب "حانة البيرة" ... Bierkeller Putsch تلك الفترة التى كتب فيها هتلر كتابه الشهير "كفاحى". إلا أن روزنبرغ لم يكن لتتلاءم طبيعته والمنازعات البيروقراطية داخل الحركة. لذا، فقد تم إقصاؤه على نحو متمهل حيث أضحى يشار إليه فى سخرية بلقب "الفيلسوف". هذا، وقد قام روزنبرغ

بتحرير جريدة الحزب النازى Volkischer Beobachter، كما كتب دفاعا عن العنصرية فى مؤلف سماه "خرافة القرن العشرين: تقييم المواجهات الروحانية/ الثقافية فى عصرنا الحالى". وحين أمسك النازيون بزمام السلطة عام ١٩٣٣، لم يعهد لروزنبرغ بإدارة أى من الوزارات المكونة، إلا أنه قد واصل إدارته لمكتب السياسة الخارجية.

لقد كان لروزنبرغ أفكار ورؤى محددة بشأن ما استولى عليه النازيون من أراض. فلكونه ألمانياً ذا أصول بالطيقية، تعاطف روزنبرغ مع الأقليات غير الروسية فى الاتحاد السوفييتى ... إذ كتب فى مرحلة مبكرة (١٩٢٧) أن التعامل مع الاتحاد السوفييتى يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الحركة الانفصالية الفتية فى أوكرانيا والقوقاز. كذا، فقد أزمع أن يستخدم وزارته لإنشاء حاجز من البلدان ليحيط بباقى الاتحاد السوفييتى ... وهو الأمر الذى يعنى، على الأقل، استقلالا اسميا (صوريا) لأوكرانيا وروسيا البيضاء، وبلدان البلطيق، والقوقاز وتركستان.

ثم شرع روزنبرغ يستوزر أفرادا لوزارته الجديدة التى ضمت قسما سياسيا للإشراف على نطاقات جغرافية عديدة كأوكرانيا والقوقاز ودول البلطيق. كذا، فقد انتظمت الوزارة عدة من أقسام أخر للإشراف على الثقافة والصحافة والشباب والمرأة والصحة والقانون والمالية والزراعة والغابات – أى الإشراف على سائر مناحى الإمبراطورية الجديدة.

كذا، فقد بحث روزنبرغ كثيرا فى أروقة "الحزب النازى" وضمن كوادر وزارية أخرى سعيا لانتقاء قيادات واعدة ... إذ كان يدير منظومة ذات نفوذ، ومن ثم وجوب اجتذاب خيرة المواهب والخبرات لها، إلا أن قلة فقط هى من ألقت للأمر بالا. هذا، وقد تمركز النفوذ فى المؤسسات النازية كأسراب الدفاع لا فى الوزارات

الحكومية. وعلاوة على ذلك، فقد كانت مخططات روزنبرغ تتعارض والكثير من أفكار هتلر الشخصية ... هتلر، الذى رغب فى استعباد كثير من الشعوب التى أراد روزنبرغ إقامة تحالفات معها. وسرعان ما كانت الكفاءات والخبرات التى حرص روزنبرغ على انتقائها تستبعد ويتم إقصاؤها، تلك الكفاءات التى كانت ضحية الصراعات السياسية وضعف روزنبرغ ... إلا أن "غرهارد فون منده" كان استثناء من القاعدة.

وقد كان "فون منده"، آنذاك، يقطن الحى الراقى المتاخم لقصر شارلتونبرغ، وهو المقر الصيفى القديم لملوك بروسيا. أما الرحلة فتقطعها العربة فى نصف الساعة للانتقال إلى مقر الوزارة، إذا فهى رحلة أكثر يسرا من تلك التى يستغرقها الذهاب إلى برلين الشرقية حيث توجد الجامعة. وفى ذلك الوقت، كان "فون منده" وزوجته قد رزقا مولودين: ابنة (برغليوت ١٩٣٧/١٢/٢٧)، وابن (ايرلنغ ١٩٤٠/١٠/١٠).

عُهِد إلى "فون منده" الإشراف على "إدارة القوقاز" بالوزارة، وذلك تحت إشراف "جورج لايبرانت". وكان "فون منده" قد استقطب جماعة من رجال ظلوا فى المنفى لسنوات، حيث كان جلهم منتميا إلى إحدى الحركات المناهضة للاتحاد السوفييتى، وهى حركة "بروميثيوس" التى أنشئت عام ١٩٢٥ بواسطة رجال راودهم الأمل فى أن يؤدى تقويض أركان الإمبراطورية القيصرية الروسية إلى تحرير أفراد الشعوب المنتمين إلى الإمبراطورية من قبضة الحكم الروسى. وحين جرت الرياح بما لم تشتهيه سفنهم، عمد أفراد الحركة إلى تحرير المنشورات والتحريض على الثورة ضد موسكو، وذلك من العاصمة البولندية وارسو، ثم من باريس. وبحلول الثلاثينيات، كانت الحركة تتلقى دعما وموازرة من كل من الاستخبارات الفرنسية والبولندية والبريطانية والألمانية. وقد أدى الغزو الألمانى لفرنسا إلى إخضاع الحركة

بالكامل للسيطرة الألمانية.

وكان "فون منده" يعرف بعضا من رجال تلك الحركة، بل قام بتجنيدهم حتى قبل أن يعمل لدى الأوستمنستريوم. وفي أعقاب الحرب، سيضطلع بعض "البرومثيين" من أمثال "ميخائيل كيديا" من جورجيا و"على قنطمير" من تركستان بأدوار بالغة الأهمية ارتبطت بعلاقات فون منده المتشابكة بالولايات المتحدة الأمريكية. كذا، فسيضحي "قنطمير" لاعبا رئيسيا في أحداث مسجد ميونيخ.

إلا أن رجلا واحدا سيبزهم ويفوقهم أهمية خلال الحرب، وما بعدها ... ألا وهو "ولي قيوم" – ذلك الناشط السياسي الأوزبكي الذي وجه خطابه إلى الأسرى المسلمين، بمن فيهم "غريب سلطان"، في مخيم أسرى الحرب كما أوردنا آنفا. وفي البدايات، لم يكن "ولي قيوم" ذا أهمية تذكر في حركة "برومثيوس"، إلا أنه سرعان ما صعد نجمه وعلا كعبه كأبرز لاجئي آسيا الوسطى في أعقاب وفاة "مصطفى شوقاي"[٢٥] – الذي كان وزيرا للخارجية بحكومة ثورية بطشقند لم يطل عهدها. ورغبة منه في تعزيز مكانته، أضاف "ولي قيوم" لقب "خان" الشرفي إلى اسمه. هذا، وقد سر الألمان صعود نجم "ولي قيوم خان" بسبب تعاونه مع النازيين منذ الثلاثينيات، إذ اعتبروه مخلصا وموثوقا. وقد تبنى النازيون الرؤية ذاتها: بناء جيوش تركية مسلمة لمحاربة السوفييت.

كان "فون منده" مدنيا، إلا أنه مع دوران عجلة الحرب اعتبره النازيون عنصرا أساسيا في نجاحهم. وفي عام ١٩٤٣، قام قائد "أسراب الدفاع" –" هاينريش هيملر" بإطاحة "لايبرانت" بعيدا عن الأوستمنستريوم، وتنصيب أحد الموالين له أملا في السيطرة على ذلك التنظيم المنافس. أما "فون منده" فلم يتأثر بالسلب جراء إعادة تنظيم الأوستمنستريوم، بل تمت ترقيته من رئيس "قسم القوقاز" إلى رئيس

"الشعوب الأجنبية" - حيث كانت مهمته، بالأساس، تتمثل فى الإشراف على سياسة الأوستمنستريوم تجاه الأقليات السوفيتية. أما لماذا ... فلأن "فون منده" قد تبنى نهجا عبقريا لتحفيز تلك الأقليات ودغدغة مشاعرها، وهو الأمر الذى ستكون له أصداء واسعة خلال سنى ما بعد الحرب الكونية الثانية.

أما "غريب سلطان"، فقد ورد برلين حين كانت خطط فون منده آخذة فى التبلور. ففى عام ١٩٤٢، أرسى فون منده "مكاتب اتصال" لمنح الجنود بعضا من تمثيل فى التراتبية الهرمية النازية ... تلك المكاتب التى سرعان ما انخرطت بشدة فى مجريات النشاط السياسى. وفى أوائل العام ذاته، عمد الأوستمنستريوم والجيش الألمانى إلى تدشين حملة دعائية فى شبه جزيرة القرم التمسا فيها جنودا من التتر. ولكم كانت النتائج عظيمة: فمن بين قرابة مائتى ألف تترى يحيون فى شبه الجزيرة، كان عشرة آلاف مجندين فى صفوف الجيش الأحمر ... إلا أن عشرين ألفا قاموا بالتطوع استجابة لتلك الحملة الدعائية، ويمثل هذا العدد قرابة مجمل تعداد الذكور فى الفئة العمرية الممتدة من ١٨ عاما حتى ٣٥ عاما ممن لم يكونوا منخرطين بالفعل فى القتال لصالح السوفييت ... وما كان للألمان قدرة على حشد أعداد كتلك إذا ما عمدوا إلى التجنيد الإجبارى.

لقد ارتكن هذا النجاح إلى إقناع الجنود فى الميدان بأن "مكاتب الاتصال" تلك، هى -بحق- أشباه حكومات فى المنفى ... تلك المكاتب التى أحيت الأمل لدى مختلف الجماعات الإثنية غير الروسية بأن الاستقلال لابد آت ذات يوم، حتى ولو كان النازيون، فى حقيقة الأمر، غير عازمين على منحهم استقلالهم المنشود. هذا، وسوف تعمد ألمانيا الغربية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى مضاعفة حجم "مكاتب الاتصال" تلك، وزيادة أعداد العاملين بها، بعد نهاية الحرب، سعيا منهما إلى تنظيم صفوف المسلمين وحشد أفرادهم.

وقد التحق "سلطان" بمكتب الاتصال التترى كبوق للدعاية ... ذلك المكتب الذى أدار محطة إذاعية وفرقة للرقص ومسرحا، فضلا عن بعض من صحف عهد إليها بدور محورى فى تلك الجهود. ففيما عدا صحيفة وجهت للجورجيين، وأخرى خاطبت الأرمن ... صدرت الصحف الأخرى آخذة الجنود المسلمين بعين اعتبارها. وقد تضمنت تلك الصحف، صحيفة "الكلمة الجديدة"، وصحيفة "المتطوع"، وصحيفة "الحرب المقدسة" أو "الجهاد". كذا، فإن صحفا كثيرة أخرى كانت تستهدف - بالأساس- الجنود من ذوى الإثنيات التركية ... من بينها صحيفة "ملى تركستان" - أى تركستان الوطن، وصحيفة "يني تركستان" - أى تركستان الجديدة، والصحيفة التى كان يصدرها "غريب سلطان" واسمها "ايديل أورال" - أى أورال الفولغا. كذا، فقد أدار "سلطان" لاحقا الصحيفة الألمانية التترية.

إن صحيفة "ايديل أورال" كانت تراقب من قبل مكتب الدعاية النازية التابع للجيش الألمانى ... ذلك المكتب الذى كان يرفدها بمعظم الأخبار والمعلومات الواردة بها. إن كثيرا من المقالات بالصحيفة كانت مستقاة رأسا من صحف نازية كصحيفة "المراقب الشعبى" Volkischer Beobachter، وصحيفة "الهجوم" Der Sturmer. وكثيراً ما كانت تلك الصحف تحوى كتابات معادية للسامية وعلى سبيل المثال، زعمت صحيفة إيديل أورال أن رؤساء العمال اليهود كانوا يستغلون أعضاء الاتحادات العمالية الشرفاء المُجدين فى المجتمعات الغربية - وهى مزاعم نمطية معيارية سادت آنذاك.

وبعد ذلك بسنوات قلائل، وعقب أن وضعت الحرب أوزارها - شرع "سلطان" يدون خاطراته فى مذكرات مطولة ... وكتب يقول: "إن الغالبية العظمى من المواضيع (الألمانية) التى وردت فى تلك الصحف كان خطئا أُقترِف ... ليس لكون ترديد الدعاية النازية عملاً لا أخلاقياً، وإنما - ووفقاً لأسس براغماتية - لم ير

الفيلقيون التتر فَرقا بين الدعاية النازية وتلك السوفييتية. لقد كان بإمكان تلك المطبوعات أن تكون أجدى وأبعد أثرا، إن كانت قد اعتمدت نهجا أكثر حيادية وموضوعية.

على أن الأقليات السوفييتية لم تكن جميعها قلقة بشأن أمور تكتيكية كتلك. إذ رأى عدد من تلك الأقليات مأزقاً أخلاقياً معضلا في القتال ضمن صفوف النازى. ولعل أشهر أفراد تلكم الأقليات - الشاعر البارز "موسى جليل" الذى قاد مجموعة سرية تترية لمقاومة النازيين، إلا أنه أُعتقِل مع رفاق له فى سجن "موبايت" سيئ السمعة حيث أُعدِم فى الخامس والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٤٤ [٢٦].

لاقى النازيون صعوبات جمة فى اختيار أفراد لإدارة مكاتب الاتصال ... إذ كان ينظر إلى رئيس الجماعة التترية على أنه سكير يفتقر إلى الخبرة. أما "سلطان"، فكان يعد ملائما لذلك المنصب، إلا أنه كان لا يزال قاصرا، آنذاك، (إذ لم يكن قد أكمل الحادية والعشرين بعد)، ومن ثم لم يُقبل فى المنصب المذكور. أما اللجان فكانت تترنح متخبطة إذ لم يكن لديها بعد قوة حقيقية ... قوة تشير إلى كيفية قيام الدين أو الهوية القومية - (والأمل الضعيف فى تحقيقها) - بتحفيز البشر ... وهو درس غال وعبرة بالغة سيعمد آخرون إلى الإفادة منه لاحقا.

فى العشرين من كانون الثانى/ يناير ١٩٤٢، وخلال مؤتمر عقد فى ضاحية Wannsee البرلينية، تبلورت مخططات الهولوكوست. ورغما عن أن اغتيال اليهود قد بدأ قبل ذلك، فإن المؤتمر قد استدعى ما للدولة من قوة بيروقراطية وشمولية تضافرتا ضدهم. أما الحضور فتمثل فى لفيف من وزراء قياديين ومسئولين نازيين. هذا، وقد استغرق المؤتمر تسعين دقيقة فحسب، إلا أن رسالته كانت واضحة جلية: لقد بات فى مقدور الدولة تنسيق الجهود صوب رافد جليل بعينه.

أما الأوستمنستريوم، فقد كان ممثَّلا فى المؤتمر فى شخص جورج لايبرانت، وألفريد ماير الذى كان، آنذاك، نائبا لألفريد روزنبرغ. هذا، وقد تباحث المسئولون حول تعريف يتاح بمقتضاه تحديد من يمكن اعتباره يهوديا، بحيث يتم إعداد الأراضى الشرقية وتهيئتها لإقامة الألمان بعد أن يتم طرد اليهود وآخرين من غير المرغوب فيهم.

وبعد انقضاء المؤتمر بتسعة أيام، عقد الأوستمنستريوم الاجتماع الأول من ضمن عدة اجتماعات لاستبعاد التفاصيل القانونية التى نشأت عنه. وعلى الرغم من أن قوانين نورمبرغ العرقية قد حددت بدقة من يمكن اعتباره يهوديا، إلا أن الأوضاع فى الأراضى الشرقية قد انطوت على بعض تعقيدات: فالتوثيق غير الكفء فى السجلات قد جعل من تتبع الجذور العرقية لشخص أو آخر أمرا صعبا، ولكن النازيين كانوا يريدون قتل اليهود بسرعة دون ترو أو تحقق ... إذ رغب العديد منهم فى معايير سلسة مرنة تتيح للمسئولين القتل ما ارتأوا ذلك مناسبا. وكان "فون منده" واحدا من عديد من بيروقراطيى القيادة الوسطى ممن شاركوا فى الاجتماع. أما محضر وقائع الاجتماع فقد خلا من أية تعليقات ربما كان قد أوردها. كذا، فإن سجلات الأوستمنستريوم لا تسفر عن أية جهود من قبل "فون منده" لاستخدام نفوذه فى إبطاء وتائر قتل اليهود، أو إبداء أية اعتراضات فى هذا الشأن. هذا، ويبقى فى حكم المؤكد أن "فون منده" كان يعلم بشأن "الإبادة الجماعية لليهود" بحلول كانون الثانى/ يناير ١٩٤٢ .

هذا، ولا يتناسق سلوك كهذا مع صورة "فون منده" بعد الحرب ... إذ كان يحلو له، آنذاك، تصوير نفسه بأنه الصديق الأوفى للأقليات الإثنية السوفييتية. وقد كان "فون منده" أحد المصادر الهامة للمعلومات للمؤرخ "الكسندر دالين" من جامعة هارفارد الأمريكية، والذى يعد كتابه "الحكم الألمانى فى روسيا"، الصادر عام

١٩٥٦، واحدا من المراجع الأساسية التى تناولت الاستيطان النازى. وكان "دالين" دائما ما ينعت "فون منده" بأنه "نصير الأقليات الأول وحاميها" – طراز فريد لشخصية خيرة تسعى للذب عن مصالح تلك الأقليات ولا تألو جهدا فى تعهدها بالرعاية. إلا أن "دالين" لا يذكر مطلقا كتابات "فون منده" المعادية للسامية فى فترة ما قبل الحرب، كذا فهو يتغافل عن مشاركة "فون منده" فى الاجتماعات التى تناولت "الهولوكوست"، إما عن جهل أو غفلة، وإما حرصا منه على التستر عليه.

ولقد كان يحلو لفون منده وللمسلمين المحيطين به بعد انقضاء الحرب إيراد بعض القصص عن يهود الجبال، الذين يعرفون أيضا بيهود "التات"[٢٧] ... ويشكلون فيما بينهم قبيلة تحولت إلى الديانة اليهودية. هذا، وتعضد الدراسات الحديثة مزاعم "فون منده" من أن يهود الجبال كانوا مُشتَملين بالحماية، إلا أن أوراقه الخاصة لتسفر عن مدى تورطه فى "الهولوكوست". وبعد الحرب، كتب "فون منده" يقول: "إننى ما أزال أذكر، ببعض من هلع، مؤتمرا لليهود الشرقيين كان قد عقد فى برلين إبان الحرب ... إذ أوكل إلى، آنذاك، مهمة بغيضة تمثلت فى إرسال التماسات إلى أولئك الشرقيين للمساعدة فى الإجابة عن بعض أسئلة. وقد قمت بإعداد قائمة طويلة بالتماسات نبعت من نهج براغماتى، فكانت الأسئلة على شاكلة: ما تاريخ شبه جزيرة القرم – ومَنْ التات – (كان المفترض إدراجهم كيهود)". وبعبارة أخرى، فقد تناول "فون منده" الاهتمام النازى بالمسألة اليهودية بجدية بما أتاح تحديد من سيُقتل من اليهود، ومن سيترك حيا.

إن تذكر "فون منده"، فى أعقاب الحرب، لأحداث ماضية تذكرا ارتبط "ببعض من هلع" ليمكن النظر إليه على كونه دليل ندم ... أو لعله كان إدراكا منه بأن ضلوعه السافر فى "الهولوكوست" قد أدى إلى تدمير مستقبله الأكاديمى، ما جعل تحوله من "الأكاديميا" نحو عالمى "السياسة" و"الجاسوسية" أمرا لا رجعة عنه.

وفيما كان الجيش الألماني يمضي قدما - عام ١٩٤٢ - إذ اخترق مناطق ذات كثافة سكانية مسلمة، مستوليا على شمال القوقاز في آب/ أغسطس من ذلك العام. وحين أعلن لواء ألماني - هو "ارنست كوسترنغ" - عن إعادة فتح المساجد هناك، قام المواطنون المبتهجون بحمله على الأعناق وقذفه عاليا في الهواء وسط صيحات نشوتهم: "مرحى ... مرحى". إلا أن حقيقة الأمر تمثلت في كون قاطرة الزحف الألماني قد بدأ ينفد وقودها - إذ كانت هزيمة ستالينغراد تلوح في الأفق. أما حينها، فقد بدا الأمر سلسا مطواعا.

أدت الانتصارات العسكرية إلى زيادة اهتمام ألمانيا بالأقليات ... إذ سعت وزارة الخارجية إلى الهيمنة على قادة الأقليات اللاجئة، وبخاصة أولئك الذين بداخل حركة "بورمثيوس"، إلا أن النصر كان حليف الأوستمنستريوم في النهاية. وكان الظافر الكبير ... غرهارد فون منده، إذ دانت له - رسمياً - المسئولية عن جميع الأقليات ذوات الإثنية التركية، بمن فيهم أولئك اللاجئون من آسيا الوسطى ... وهو الأمر الذي مفاده كونه مسئولا عن جميع لاجئي ذلك الإقليم فضلا عن مسئوليته عن إيجاد حلول لمشاكل ذات بال، ككيفية توظيف "الإسلام" لتحفيز اللاجئين واستنهاض هممهم للوفاء بالمتطلبات الألمانية المختلفة.

ثم عمد "فون منده" إلى تعضيد "مكاتب الاتصال" وإعلاء شأنها. وكان جل هيكل العمالة بتلك المكاتب من اللاجئين، وذلك خلافا للمعينين حديثا في الجيش الألماني، ووحدات "أسراب الدفاع" القتالية، والذين كانوا جنودا سابقين في "الجيش الأحمر". كذا، فقد قام "فون منده" بإدراج "اللاجئين" على قائمة من يتلقون رواتب من الأوستمنستريوم، وإعادة تسمية "مكاتب الاتصال" لتصبح "مكاتب الإرشاد والتوجيه"، ثم "اللجان القومية" ... وهو تعديل لفظي أريد به أن يقوم اللاجئون بإرشاد الجنود في ميدان المعركة وتوجيه الأهالي نحو أوطانهم، كما لو كانوا

يشكلون حكومات وليدة فى المنفى.

أعقب ذلك قيام "فون منده" بالسماح لمكاتب الإرشاد والتوجيه بتسمية العاملين الذين سيعهد إليهم بإدارة الوحدات العسكرية بما يكرس الانطباع بأن الأقليات كانوا يقومون على شئونهم بأنفسهم. وبحلول عام ١٩٤٣، سمح "فون منده" للأذربيجانيين وتتر الفولغا والتركستانيين بعقد اجتماعات من أجل تشكيل لجان "ممثلة" ... أشبه ما تكون ببرلمانات مصغرة تسعى لجعل أصوات تلك الأقليات مسموعة. وكانت لجنة الوحدة القومية التركستانية، التى ترأسها "ولى قيوم خان"، أبرز تلك اللجان.

أما "قيوم" فكان تحت حماية "فون منده" المباشرة ... "قيوم"، ذلك القائد المسلم الذى ردد شعارات النازى ببراعة وإتقان. فمرارا، أبدى "قيوم" إيمانه بألمانيا مهاجماً أعداءها بأنهم أعداء تركستان. ولقد كان للجنة التى ترأسها صحيفة تصدر باللسان "التركى". ومن خلال الصحيفة، واسمها "مللى تركستان" – أى تركستان الوطن – شن "قيوم" هجوما عنيفا على "البلدان الإمبريالية الديمقراطية الليبرالية"!! ... واصفا إياها بأنها عدو من أعداء تركستان.

إلا أن المنحى السياسى الذى انتهجه "قيوم" كان منفرا، إذ جعل الناس ينفضون من حوله ... الأمر الذى ظل يطارده فى حقبة ما بعد الحرب. ففى عام ١٩٤٤، اصطدمت جماعة من القيرغيز والقازاخستانيين فى لجنة الوحدة القومية التركستانية بولى قيوم، وذهبت لتناشد الأوستمنستريوم ملتمسة تمثيلا مستقلا لها ولفيالقها. وقد واجه "قيوم" ذلك التوجه بانتقام وحشى شاجبا إياها لدى "الغستابو"، وما قد ينطوى عليه الأمر من تقديم خصومه المنشقين عليه إلى منصة الإعدام ... إلا أن "الغستابو" قد ضرب صفحا عن الأمر فأسقط الاتهام معتبرا إياه

مشاحنة بين اللاجئين. وكديدنه فى حالات عديدة لاحقة، سيهرع "فون منده" لمد يد العون إلى "ولى قيوم" المشمول برعايته عامدا إلى تنظيم مؤتمر تركستانى فى فيينا حيث اختير "قيوم" ليترأسه.

لقد اكتست تلكم الأحداث حلة من زيف وغلالة من كذب ... فمع تقهقر قوات الجيش الألمانى، فقدت ألمانيا السيطرة على ذلك الإقليم الذى كان من المفترض أن يقوم الأوستمنستريوم بالإشراف عليه ... بل لقد كان منزل "فون منده" نفسه تحت الحصار. وفى عام ١٩٤٤، عمد الرجل إلى إخلاء منزله وترحيل عائلته إلى إحدى الضواحى الريفية ... ذلك الإخلاء الذى سرعان ما أعقبه تفجير للمنزل جراء غارة جوية استهدفته.

لقد تواكب ذلك مع تنامى وتيرة جهود "فون منده" التى بلغت منحى رابيا. أجل ... قد يكون يأسا، أو لعله المنطق الصارم فى حالة "فون منده" تلك، والذى مؤداه: إن أولئك المسلمين يريدون أن يخوضوا قتالا لمصلحتنا، إذا، فما علينا سوى أن نمنيهم ببعض وعود. دع عنك أن لا نية لدى النازيين للوفاء بأية وعود، إلا أنه يسعدهم أن يتركوا "فون منده" ينظم اجتماعا هنا وآخر هناك، والخلوص إلى خطط "خيالية" إذا كانت تقود الجند المسلمين للقتال بعزيمة أكثر مضاء بغية تحجيم السوفييت وعرقلة تقدمهم.

على أن "غرهارد فون منده" قد يمكنه، فى أعقاب الحرب، الزعم بأن المسلمين السوفييت لم يكونوا "مسلمين" بما تعنيه الكلمة - ربما للحرص على تفادى انتشار المخاوف من كونهم مهووسين دينيا. إلا أن "فون منده" ذاته، بالتوازى مع آخرين، قد حرص جهده على ترسيخ "هوية إسلامية" بين صفوف أولئك الجنود. وقد عمد "فون منده" ورفاقه إلى تحقيق ذلك عن طريق موازرة قائد مسلم بارز، وعقد ندوات إسلامية.

أما الموأزرة فجاءت من الشيخ/ أمين الحسيني، مفتى القدس ... الذى ينحدر من عائلة ضمت رجال دين مبرزين. وقد ورث الحسيني منصبه كمفت للقدس عقب وفاة أخيه "كامل الحسيني"، حيث شرع يبنى قوته ويرفد نفوذه، وهو الذى رأى فى "النازى" حليفا لبلاده فى وجه البريطانيين الذين كانوا يسيطرون، وقتها، على وطنه الأم، فلسطين. وفى أثناء الحرب الكونية الأولى، قام أمين بالفرار من فلسطين واتخذ طريقه صوب القارة الأوروبية، حيث التقى هتلر ودشن دعاية نازية معادية للسامية، فضلا عن متابعة القوات المسلمة. هذا، وقد أضحى الحسيني، بعد الحرب، معارضا لنودا لإسرائيل، كذا فقد كانت له اتصالات شخصية مع السواد الأعظم من المجموعات الساعية باستماتة للسيطرة على "الإسلام" فى ميونيخ. وفى عام ١٩٤٣، عزم "فون منده" على البحث عن قائد دينى لتتر القرم وذلك ليلبس الحكم النازى إهابا دينيا ... وهنا سعى للبحث عن "أمين الحسيني".

"إن العالم الإسلامى لكتلة متجانسة" ... هذا ما كتبه "فون منده" لاحقا فى معرض تبريره لأفعاله مردفا: "يجب أن يكون التوجه الألمانى إزاء مسلمى الشرق بحيث لا يضر بمكانة ألمانيا بين الشعوب الإسلامية".

وبعبارة أخرى، فإنه يمكن لألمانيا أن تخطب ود العالم الإسلامى عن طريق تنصيب مفتيا لشبه جزيرة القرم. هذا، وقد التقى كل من "أمين الحسيني" و"غرهارد فون منده" ثانية فى تموز/ يوليو ١٩٤٤ . حينها ... كان الجيش الأحمر قد استعاد سيطرته على شبه الجزيرة. أما "الحسيني" فقد ذكر أنه بأخذ العوامل القائمة بعين الاعتبار، يبقى تنصيب مفتٍ أمراً غير ذى موضوع، فى حين ذهب "فون منده" فى دفاعه عن رأيه فجاجا أخر. أما فى حزيران/ يونيو ١٩٤٤، فقد اضطلع "فون منده" بالتعاون مع "برتولد شبولر" – الباحث فى تاريخ أوروبا الشرقية وخبير الدراسات الشرقية واللسانيات الفارسية – بإنشاء مدارس "دينية"

تقدم خلالها دورات لتأهيل الدعاة Mulla-Lehrgange، وذلك فى كل من "غوتينغن"، و"دريسدن".

إلا أن ذلك لم يفلح فى إنقاذ النازيين. ففى بدايات عام ١٩٤٥، تم قصف بنايات الأوستمنستريوم ومقاره، فضلا عن تدمير العديد من الملفات التى كانت محفوظة بداخله. أما "فون منده"، فلم يتبق لديه إلا ورقة وحيدة بوسعه استخدامها. فعلى امتداد الأشهر التى سبقت القصف، كان الأرجح أن يكون "فون منده" قد خطط لأن تنتقل الوحدات المسلمة إلى الجبهة الغربية بحيث تتمكن القوات الأمريكية والبريطانية من اقتناصها - إذ كان الوقوع فى أيدى السوفييت - آنذاك - يعنى الموت المحقق لا محالة.

أما الوحدات، فقد تداعت أركان العديد منها وانفرط عقدها ... حيث انضم الكثير من أفراد "أسراب الدفاع" إلى المقاتلين فى تشيكوسلوفاكيا، فى حين تمردت كتيبة جورجية ضد الألمان. وفى شباط/ فبراير ١٩٤٥، أعلنت تركيا الحرب على ألمانيا، فى ضربة عنيفة للروح المعنوية لجنود الأقليات المسلمة. أما "ألفريد روزنبرغ"، فقد ذهب إلى القول بأنه عازم على الاعتراف باللجان القومية واعتبارها "حكومات" - على الرغم من كون وزارته قد ألغيت رسميا. حتى "غريب سلطان" ... قد نال ترقية، إذ شكل التتر حكومة مؤقتة فى بدايات عام ١٩٤٥ جعلوه يترأس إدارتها الحربية.

بيد أن جهود "فون منده" كان لها وظائف هامة، وبخاصة ما ارتبط بالتوظيف السياسى للإسلام بعد انقضاء الحرب الكونية الثانية. إن بمقدور الأقليات المسلمة الزعم بأنها كانت تجاهد فى سبيل إرساء أشبه ما يكون بحكومة منفى، لا فى سبيل تحقيق المصالح النازية. فعوضا عن خليط من دوافع متنافرة لا ينتظمها رابط

تراوحت ما بين رغبة فى الهروب من مخيمات لاجئى الحرب المخيفة، ونزعة انتهازية محضة ... أمكن لتلك الأقليات الزعم بأنقى الدوافع وأرقاها فى تبريرهم لفعلاتهم: "التحرر الوطنى". ودع عنك كون المنظمات والتكوينات المسلمة هى صنيعة ألمانية بالأساس أريد بها بقاء القوات واستمرار وجودها فى ساحات القتال. إن الأساس المنطقى لتحرير شعب ما من القمع السوفييتى ليحكم بلاده بنفسه، ولتكون له حرية المعتقد والممارسة الدينية – يمكن أن يسوغ تلك الجهود برمتها مانحا التمهيد ومشرعا الأبواب أمام الأصدقاء الجدد للمسلمين ... إنهم الأمريكيون – أولاد العم سام.